لهب الحياة

تأليف

على عبد الحليم البنجى

بالجامعة الأزهرية

١٣٧٠هـ — ١٩٥٠م

obeikandl.com

تصـــدير

بقلم الأستاذ الجليل أحمد الشرباصى

المدرس بالأزهر الشريف

مهمة الأدب فى الحياة هى تصوير ما يقع فى الكون تصويراً دقيقاً صادقاً ، تستبين به الملامح والسمات ، وتتضح فيه المحاسن والعيوب ، ثم تصوير الوضع المثالى المستطاع الذى يجب أن تكون عليه الحياة والأحياء ، لتتحقق السعادة وتنتشر الهناءة .

وما دامت هذه هى مهمة الأدب الكبرى فقد آن لنا أن نفهم فى يقين وثقة أن الأدب الحق الصحيح يجب أن يستقى من عصارة القلوب والأرواح ، وأن يصاغ من لهب الحياة وأتون المجتمع . بذلك يكون للأدب جلالته وخطورته . وللأديب فضله وصنيعه . ولعل البشرية الحائرة الجريحة التى امتلأت آذانها . وأرهقت أعصابها من نجويات النفس وترهات الأوهام وسطحات الأحلام وهتفات الذات وألحان الأثرة والهوى ، قد أصبح من حقها أن تتجه فى آدابها وجهة أخرى تكون أقرب إلى الصلاح والإصلاح من سابق طريق كانت تطغى فيه الأنانية والشهوات

obeikandl.com

الشخصية والرغبات الجامحة والآمال الفردية على مصلحة الجماعة ومنفعة البشر ! . .

كم سمعنا أحاديث الحب والغرام، وأغانى الصبابة والهيام . ومناجاة المحبين وتوسلات المهجورين . وكم طالعت أبصارنا فى مجالى الأدب صفحات ضمت نفثات ذاتية لنفوس كبيرة أو صغيرة من رجال الأدب والشعر . وكم وجدنا خلال هذا الزاد الفنى الكبير من متاعهم سعدنا بها زمناً . وعرفنا لها ولأهلها مكانة وفضلا . ولكننا نود أن نسمع بعد هذا . أو مع هذا . أصوات أدب يحدثنا عن بؤس البائسين وآلام المحرومين وشكوى الشاكين وعيوب الخاطئين ومآثم الطاغين ومظالم الظالمين وحقوق المهضومين ومآثر المصلحين . وما نريد ان نسمع هذه الأصوات لأننا نبغى استثارة أحزان لأنفسنا . أو استزادة من شقاء لأشخاصنا . أو كيدا لمحظوظين بيننا . أو تمرداً على أوضاع مهابة فينا ، أو خروجاً على نظام مرضى منا . بل نريد هذه الأصوات المخلصة الصادقة لتكون إشعاراً قوياً لنا بأن مجتمعنا معيب فيجب أن يصلح . ومريض فيجب أن يصح . وجاهل فيجب أن يتعلم ، وفقير فيجب أن يغنى ، وجائع فيجب أن يأكل ، ومتحلل من الأخلاق فيجب أن يتخلق ، ومتفلت من الدين فيجب أن يتدين ! .

ولذلك كان سروری عظیما حینما تقدم إلى الأديب الناهض الأستاذ على عبد الحليم محمود . على حياء كريم أعهده فيه وأحمده له . بهذه الصفحات التي صاغها من وهج الحياة ، وسألني أن أجيل فيها بصرى مسددآ أو ناقدا . وأن أقدم لها بكلمة تصور وجه الرأى فيها . . وإنما كان سروری عظيما بذلك لأنني لمست من سطوره الأولى التي طالعتها له أنني صادفت لونآ من ألوان الأدب الواقعي الحيوى الاجتماعي الذي أضحى أن يتكاثر ويتضاعف . وخاصة بين صفوف الشبيبة المتوثبة الاقتبال من مناهل الأدب . والتي نأسى لها كثيرآ حينما نراها وقد استبدت بها أغراض من الهوى واللذة فلفتتها عن الينابيع الثرة الصافية التي يفيض منها طهور الفن وخالد الأدب ! . .

والأديب صاحب هذه الصفحات شبل من أشبال الأزهر الطامحين ، يزينه خلق نقى . وعزم فتى . وعقل جلى ، سعدت به حين جلس منى مجلس الطالب أمام أستاذه حيناً طويلا من الزمن . فدرست له جانباً من علوم العربية والأدب . ولمحت فيه ـ بعد فترة قصيرة من الزمن ـ الفكر الثاقب والقلب الشاعر والقلم المطيع واللسان المقتدر . وأحسست منه بعد قليل من صلاتنا العلمية أن صدره البرىء ينطوى لى على عاطفة كريمة متبوبة

صاغيا الميل القوي والحب العميق واللهفة الوفية من طالب وفي إلى من يراه حدبا عليه مهتما بتخريجه كأحسن ما يكون الطالب في ميدان العلم والأدب . وكان يغلب هذه العاطفة ويكاتم أول أمره . ثم أخذ يبادى عنها في ضروب عذبة من القول ، وأفانين مستحبة من الأساليب . ثم مرت بي وبه وبسوانا من صفوة الجماعة وكرام الناس محنة عصيبة استبد فيها اللؤم الوضيع والكيد اللئيم والهوى الطاغي والبغي الخسيس السافر والتطاول الأثيم الفاجر بالكرام والمكارم . فما رأيته حينذاك في عزلتنا المفروضة علينا إلا صديقا ورفيقا . وإن أنس له حسن خدمته وطيب أرومته إلا أن يراني كما كان يراني وأنا في موقفي منه أثناء الدرس والطلب . . ومما أحب لحظة في أن هذه الفترة العصيبة الشديدة التي لا ننسى قد أفادته ، وأفاءت عليه بعظات وتجارب طوعت له بعض العسير في ميدان الرأي والفكر ! . .

إنه كما نستطيع أن نعرفه من كتاباته وصيحاته أديب أزهري شاب يتقد غيرة على الإسلام والعروبة والوطن وكريم المبادىء . . وهو ثائر النفس ، ثائر القلب ، ثائر اللسان ، ثائر القلم ، وكثيراً ما حاولت أن أهدهد من جيشانه . وأطامن من حدة بيانه . فتغلبه حماسته لفكرته تارة . ويستجيب لمن يرى له حق التوجيه

زات . وهو بين حماسته واستجابته لا يزال كما هو شأن الشبل المتوثب الذى يتعجل الثمر. ولا يقنع إلا بما طال المطر. وهو دائماً يحذرنا من الخطر ، ويوالى بالنذر . ولذلك كان أهم شيء ولى وجهه إليه هو الحملة الصادقة فى نقدها للاختلال الواقع بين الناس . وهو التعرض لقضية الغنى الفاحش الطنين مع الفقر الذليل المسكين . وهو الحديث عن لقمة العيش التى أصبح لها فى المجتمع المضطرب خطرها وأثره . وهو الاستنكار لمظالم الجبارين . والأسى لنكبات المظلومين . وهكذا . ترى الشاب الأديب المسلم لا تشغله إلا أمور هى مشكلات عامة وقضايا كلية المفروض فيها من قديم ألا يتعرض لها إلا من قدم به العهد وتطاول عليه الزمن . وتوثقت صلاته ببحث تلك الأمور والتخصص لها . وليس وراء ذلك من دليل على أن شبل اليوم يعد نفسه لواجب جليل تتفتح عنه أكمام الغد القريب ، ولا ينهض به إلا ضراغم الأسود ! . .

على أن التعرض لمثل تلك المشكلات المعضلة العويصة الشائكة يمثل هذا القلم الجرىء والعبارة الواضحة والعاطفة المتأججة قد يوقع فى غيوم الشبهة أو ظلمات الظنة أو شطحات التأويل . وخاصة ممن يسوؤهم أن يسمعوا كثيراً عن الدين

والأخلاق والعدالة والمساواة والتكافل والتراحم بين الناس . ومن هنا يساء فهم الكلام . ويحرفه المحرفون عن مواضعه . ويرون في كل نصيحة تهديداً . وفي كل إرشاد تمرداً . وفي كل أناة هدما وتحطيما ، وفي كل صيحة كريمة عنفاً وإثماً ، وأشهد ما عنت صاحبنا الشاب إلا مخلصاً في هدفه . كريماً في قصده . لا يبغي هدما أو إثماً أو جرما . وإنما يبغي للإسلام مجداً ، وللعدالة جنداً . وللمساواة عهداً . وما أراد حين أراد - فيما أعلم على الأقل - أن يجنح إلى مبادىء هدامة خبيثة ، أو دعوات شريرة خطيرة . وكيف ومن معين إسلامه وعروبته وأزهريته وإنسانيته جاء هذا الرجفن ؟ . . وكم من كلمات حق خالصة مخلصة انبعثت في رحاب الوادي . يراد بها وجه الله والوطن . فأتى عليها المبطلون والآثمون بتحريفهم وسوء تأويلهم وخبث تربصهم ، فأحالوها إلى موجبات حساب وعقاب ، وويل المفترين من يوم عصيب تتقطع فيه لدى رب الأرباب خوادع الأسباب !..

على أننا كثيراً ما نرى الأديب الشاب يبدو أسلوبه ، ويصرح قاسياً في صراحته ، حتى إنه ليضيق الخناق ويشد الوثاق حول آثم الأعناق . فنحسبه هولا ووثبا ووقداً ، وأحياناً يعجم في حديثه ويجمجم ، كأنه يريد أن يقول شيئاً ما ولكنه يطويه

حين بيديه . او يرمز له ويلمح . بدل ان يشير إليه ويصرح ، ولا شك أن وعورة الطريق الذى يسير فيه . وتكاثر المعاطب والمخاطر على جانبيه هو الذى يدفعه إلى ذلك . ولعنة الله على بلد لا يستطيع المرء فيه أن يقول كلمة الحق إلا إذا لفها بألف غطاء وغطاء من التخفيف والتهوين ! ! . .

أما بعد. فياعلى: لقد ألقيت دلوك بين الدلاء، وشركت فى حمل اللواء. وبدأت تعرض زاد فكرك وقلبك على الناس. وإنه لميدان طويل . وسفر بعيد . وتعب موصول ، فما كان ميدان الإصـــلاح يوما إلا بوغة تنصهر فيها عزائم الأحرار من الرجال . ولك من شبابك وأدبك وإيمانك زاد أى زاد . والطريق أمامك فسيح . والغد مأمول . والمستقبل منك مرجى ، والعرف لا يذهب بين الله والناس . فاصبر وصابر ورابط ؛ وادرس وحصل واستكمل ما تحتاج إليه . وتزود لغدك متربثا بلا عجل ، ومن سار على الدرب وصل . وما الحياة إلا أمل يحققه عمل . فإلى الأمام ! . . .

المدرس بالأزهر الشريف

الإهـــــداء

إلى الإنسان وأريد به كل من أحس بأنه إنسان .

إلى بنى الإنسان أهدى عصارة قلبي وزاد فكرى .

إلى الذين يحرقهم لهب الحياة . ومن أجسامهم تتأرث نار هذا اللهب ...

إلى الذين تقسو عليهم ألسنة النار المندلعة فتشوه منهم كل شيء .

إلى الذين تنقض عليهم صواعق الظلم فيتجلدون لها ويغالبونها ثم تصرعهم ...

إلى صرعى الظلم والعدوان فى لعهد الظالم أعنه الجائر بنوه .

إليهم فى جحيمهم المستعر أهدى هذه الكلمات . ولست أبغى من وراء ذلك إلا أن عبد الإنسان إذا قرأ كلماتى أصبح إنساناً .

أجل ما أحوجنا إلى كلمـــات إذا قرأناها أثارت فينا إنسانيتنا التى طمرتها المآرب والأهواء فهى توشك أن تندثر .

إليهم وأنا منهم أهدى كلماتى ؟

على عبد الحليم محمود البجاوى

هذه هي الحياة

... سمعت أحد الناس يشكو ويئن. ولكأنما الضيق آخذ بخناقه، والضجر مالئ عليه قلبه مفعم عليه نفسه - وقد كان ذلك حين كنت أجلس إلى أحد أصدقائي في الترام أحادثه - فإذا سمعي يتحول نحو هذا الذي أثار فضول الناس واسترعى اهتمامهم - فأصغيت إليه فإذا هو يقول: ما بال القدر لا يعني بنا حتى ليخيل إلى أنه فرغ من أمرنا واستقبل شيئاً آخر رآه في حاجة إلى عونه أكثر منا؟ ما باله يصنع هذا فإذا بنا نهبة مختلف ألوان الفقر ومتباين أنواع المرض والشقاء؟ ويح الإنسان يصنع به كل هذا، ثم هو مطالب بعد ذلك بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وما يستتبعه ذلك من عبادات ومعاملات - ومنهج قويم، لا يحيد عن الجادة رغم ما عرف عن النفس الإنسانية من ميل إلى اللهو بالقوانين والسخرية من الأوضاع المرسومة مادامت لا تضمن لها هانئ الحياة ورخى المعيشة.

ثم استطرد الرجل في حديثه لصاحبه قائلا: ولئن لم يقيد الإنسان نفسه بحبال هذه القوانين. ويكبد نفسه مشقة القيام بهذه الواجبات

obeikandi.com

فقد أوعد بنار تلظى وجحيم وقوده الناس والحجارة. على حين قد حرم كل الأسباب التي تجعله يقوى على الامتثال - فإذا ما تخفف من عبء ما هو مكلف به ، وأزاح عن نفسه شيئاً من ثقل ما ينوء به كاهله - إذا بالتقاليد تصمه بالإلحاد وتصفه بالخروج على نواميس الدين - لكأنما فهم الناس الدين فقراً ومرضاً وشقاء . أو زهداً وورعاً وجفافاً .

وأخذ الرجل يتكلم وقد لاح لي أن الرجل صريع فقر مدقع وإن كان صاحب عقل وثقافة ... وعلى التو وثب إلى ذهني قول أبي العلاء الآثم :

فلا عيب يارب السماء على امرئ
رأى منك ما لا ينبغي فتزندقا

وخيل إلى أن الرجل ظل يواجه العوز والحاجة في هذا المجتمع الجائر الملئ بالظلم والعدوان ؛ وكنت أنظر إلى الرجل في بزته البالية فأرى فيه ما لا تمكن رؤيته إلا حين يتجسم الفقر فيصير رجلاً ، وأرى في بزته ما لا أستطيع رؤيته إلا حين تتجرم الحاجة ثم تطول وتمتد . وتتخذ أشكالا مختلفة تسفر أخيراً عن مثل هذه البزة - وكم يارب في مصر من مثل هذا البائس المحروم .
وانتهى الرجل من حديثه هذا وأردف به لوناً آخر من الحديث كان الألم في أثناء تحدثه يعلو ويهبط على وجوه السامعين . وكنت

أنا أصعد فيه نظرى وأصوبه وفى نفسى ما فيها . وقد مرنت أذنى على سماع مثل هذه الأنات . ودرب قلبى على أن يبكى لمثل هذه الآهات . وتعودت منى عينى اجود بمائها حاراً هتوناً لمثل هذه الملمات وكثيراً ما هى ...

وذهب الرجل فى شرح فقره وحاجته المذاهب حتى لكأنما عدم النهاية فهو متخبط فى البحث عنها . وكلما ولج إليها باباً استمر ماشياً فى داخله متحدثاً عن فقره حتى يعييه الانتهاء . بل وأين يكون هنا الانتهاء وقد سمعت فيم سمعت من الرجل أحاديث مهولة مخيفة مريعة ـ تفتت الكبد . وتصدع جوانب القلب وتمزق نياطه شر ممزق ـ وأخيراً نزل الرجل من الترام تاركا خلفه البكاء المر والرثاء الممض من كل قلب مشفق على الانسانية التعسة . .

أما أنا فقد خانني تجلدى فبكيت . . . واستثارني بث الرجل فذهب بهدوئى ، وطفقت ألعن المجتمع الجائر المجرم .. وتتابعت على ذهنى صور مثل هذه ، وتواردت على ذاكرتى ذكريات أمثال هذا البائس المحروم ـ عند ذاك جاشت نفسى وغلى مرجل قلبى ، وتساقطت دموعى من فرط ما أنا فيه ، وفاضت شئونى وندعنى وعنها الجمود .

وأنا الآن حائر فى أمر الانسانية بيننا نحن المصريين ، أنا مشتت الذهن قلق البال لا أعلم كيف يعيش الناس على هذه الوتيرة

أنا الآن مضطرب النفس أتى الدمع خفيض الصوت ، لا أدرى متى يحق الحق فى هذا البلد المنكود . . . يا لى من إنسان تبكيه مصائب الانسانية. ويا للإنسانية من قوم لا يؤمنون بها كالمصريين بالله لتوشك السما. أن تؤذننا بحرب عسير علينا أن نمادها حبلها شاق علينا أن نخوضها . وقد عيت منا العقول جهلا وهزلت منا الأجسام مرضاً وفقراً . . . ولقد آذنت الانسانية هؤلاء المصريين بنارها وسعيرها فإذا بهـــا تبعث فيهم من يكون مثلا صارخاً على إهدارها ...

ليت شعرى إلى كم يبعد المصريون عن الانسانية؟ ويتغورون إن صعدت ويصعدون إن هبطت . فإذا تمادا ساعة ثم شرقت غربوا أو غربت شرقوا . لقد قيل إن هذه هى العداوة الفطرية أو التى نطبعت عليها النفوس إن لم تكن مطبوعة عليها . وإنه لما يؤلم النفس ويؤرق جفن الحياة ويجعل المهاد قتادا . والقراش جمرا أن يحس الانسان عداوة نحو الانسانية ـ قيل ذلك ـ ولى ولـكل منصف أن يقول : إن عـــداء المصريين للانسانية وريث ظلم وإجحاف من فئة لفئة . وتركة أثرة وطمع من طائفة فى طائفة. وطريد إنصاف يريد ان يقسم بين الناس ولكن الناس منه فى مضض، لا يأتى إلا وقد ذهبوا ولا ينعطف نحوهم فى طريق إلا وقد حادوا عنه. لقد حسبوا أن الانصاف هو داؤهم الممض ومرضهم المستأصل

ومن ثم فهم جادون فى الهرب منه . لا يرون طلائعه إلا وقد ريعت قلوبهم وانفطرت أفئدتهم وظنوا بأنفسهم المهالك وجوا فى هربهم . بل قل جوا فى شن الحرب العوان على كل ما يمت إلى تنغيصهم بسبب ...

وفى هذا حرب العدالة ومناصبة الحق مر العداء وهضم الحقوق وأكل المال بالباطل . واحتكار الحياة لطائفة بعينها تعيش على صبابة من دم الفقراء يصطبونها كلما ألح عليهم جوعهم لشرب الدم والولوغ فيه ومن المؤلم أنه كثيراً ما ينجح وكثيراً ما يلقون - وعى مذبح الظلم تقدم هذه الضحايا الجليلات بل هذه الصبابات، وإن عين الحق لباكية وإن دم الإنسانية لمراق، وإن حب الأثرة لجياش بالنفوس وإن شرة الطمع لآخذة بمجامع الأفئدة وإن الصرعى حينئذ لكثيرون ...

وأنا لا أدرى ولا المنجم يدرى إلام يئن الشعب ويرزح تحت هذا النير الكريه ؟ إلام يستجدى الشعب هؤلاء الناس فتات موائدهم على حين أنه هو صانع المائدة ؟ إلام تخيم على الشعب هذه الجهالات فيرى فى هؤلاء الظلمة سادة أشرافاً من حقهم أن يسيطروا ويأكلوا ويشربوا ويتمتعوا وبمقدار مايسودون يذل وبمقدار مايشرفون يتضع وبمقدار ما يسيطرون يخضع ويستكين،

وبمقدار ما يأكلون ويشربون ويتمتعون بجوع وبظما ويحرم - لكأنما الطينة غير الطينة ولكأنما أولاد آدم أنواع - هؤلاء من خيرها وأولئك من شرها . لست أدرى إلام يجهل الناس أن الطينة واحدة وأن الخلعة واحدة وأن التباين بين الناس معدوم وأن الكل لآدم ، وأن كل ولد آدم سواء ؟...

وليت شعرى حتام يأكل هؤلاء ويتمتعون وإن على أنين الجوعى وبكاء المحرومين ؟ أليست لهم ضمائر تخزهم وخز البعوض المترفق لا وخز الإبر - فيؤمنوا بحقوق طالما كفروا بها . ويعطوا حقوقا كثيرا مامنعوها ويتركوا مغانم ما أكثر ماغلوها ويعنوا وإن إلى حد . وتحيا ضمائرهم وإن على قدر ..

ولكن ماأنا أول من قال ولا أنا أول من طالب . ومع ذلك فهم فيما هم فيه لكأنما ماتت ضمائرهم ، ولكأنما رمت قلوبهم وما الذى يخفق فى صدورهم إلا دودها . ولكأنما هم يعيشون بلا إحساس ولا تعور غشيهم من الطمع ما غشيهم وران على قلوبهم من الأثرة ما ران وحجبتهم عن أن يعدلوا الحجب الكثيفة - وحيل بينهم وبين ما يكرهون ، . وإن كان قد حيل بين بقية الناس وبين مايشتهون . الأمر الذى دعى كثيرين إلى أن يقولوا إنها محاباة السماء فهم وظلها للآخرين ، فمادوا إلى إنشاد بيت أبى العلاء .

فلا عيب يا رب السماء على امرا

رأى منك مالا ينبغي فتزندقا

ولكننا مؤمنون . وبالله موقنون ، وبعدالته واثقون ، وبالظلم كافرون. ولكنا مع ذلك لن نكبت على الظلم وبيننا وبين الظلمة قانون السماء وما أعدله من فيصل . . .

---

opeikandl.com

مفارقات

رأيته ماشياً مطرق الرأس غائب الرشد . إذا رفع إليك وجهه وجدت سحابة كثيفة من الهم الدفين تعلو قسماته ، فإذا ما عاد إلى إطراقه بدا لك أنه محلق فى سماء مظلمة مدلهمة غائمة مكفهرة . وخيل إليك أنه يرسل شعاعاً من فكره المريض على هذه المشكلات العريقة فى الاشكال التليدة فى إضناء النفوس . ولاح لك أنه ملق بكل شىء دبر أذنه طارح به وراء ظهره . فارغ من كل شىء ليواجه شيئاً بعينه ، مستدبر كل مشكلة ليستقبل مشكلة بذاتها .

والنفس الانسانية يوم تكون كذلك فإنما هى فى درجة من الهم لايقوم لها شىء ، والقلب البشرى يوم يحمل صاحبه على ذلك فإنما هو فى مرحلة من الحزن ينعدم بعدها ماهو أشد منها ، والعقل فى هذه الحالة باويحة إنما هو الوقود الذى يؤرث هذه النيران ، وإنما هو الجذوة التى توضع فى هذا الهشيم وإنما هو النفخة التى تنفخ فى هذه النار الخامدة تحت رماد المشكلات .

والرجل يأله من بائس نهب لهذه الآلام - لاتراه خارجاً من

هم إلا ليدخل فى آخر - رأيته على مثل هذه الحالة التى صورت مع نقص فى تصويرى وتمام فى واقعة . فريع فؤادى وانفطر قلبى . وتقبضت نفسى من عقالها فبكت . وانفكت شئونى من إسارها فغاضت وذهبت المذاهب فى تأويل ما عليه الرجل من حال . . . ولو كنا فى أرض غير الأرض . وبلاد غير البلاد . لوجدت ألف يد تعينه . وألف نفس ترثى له . وألف عين تبكى له وألف واحد يحلون مشكلته .

أو لوجدت مثل هذه الصورة الإنسانية الباكية قد صادرها المجتمع وحرم عليها البروز أو المثول أمام أعين الناس ، وراحت دوائر خيال هناك ونفسها تضطرع وتتصارب فى كيف وجدت مثل هذه الصورة .

وعمت المآتمات فى المصر وحلت العقوبات بالمتوالى ، ونزلت النوازل بمن يشتم منه رائحة تلاعب بحيوات الناس ، وهدرت العدالة هديرها المخيف حين تباح حماها ولا ترعى حرمتها . وثارت الإنسانية وهدرت وفقدت تجهمها وطيبها فألصقت جحيمها وسعيرها على كل من مات ضميره فظلم . ووجدت نفسه فاستباح ما للغير من حقوق . ولمعت وأزبدت دماء الناس فى أعطافهم . ثم علت فائرة نحو رؤوسهم فاشرأبت

obeikandi.com

منهم الأعناق والتهبت الأدمغة . وراحوا ينقضون كوامر غضبا
مال، نفوسهم ناحية الإنسانية وحشو جلودهم الغضبة العاصفة حق
ضاع وحرمة انتهكت ونفس تعذبت ...

أما فى هذه الأرض وفى هذا اليم فحجر محجور عليك أن تمد
إلى هذا الإنسان يداً من رحمة أو من إصلاح . . وكيف بك
تفعل هذا وأنت عديم الحول والطول فاقد القوة والحيلة . قد
جردت من كل ما تزاد على سد الرمق وإبقاء الذماء ؟ كيف بك
تبكى له أو تساعده وفى حياتك ما يستنفد كل ما جادت به شئونك
ولربما استنفد دم حياتك المعتلة ؟ .

كيف بك تنتصف له من ظالمه وأنت مظلوم من الظالم ومضطهد
أشد الاضطهاد وبك من الهم ما الله به عليم ؟

قصاراى من كل هذا ـ أنى رأيت الرجل على ما وصفت فرق
قلبى لحاله وقلت فى نفسى جميل بى أن أقدم له معونة فربما خففت
عنه من ثقل ما يجد . وشاطرته شيئاً مما ينوء بحمله ، وجعلته يبث إلى
شكاته فيتنفس عن هذا القلب المكلوم وهذه الكبد المقروحة .
وأنا بعد ذلك أكون قد أسهمت بشىء فى تخفيف آلام الانسانية
المعذبة . وآنئذ أكون مرتاح الضمير مثلوج الفؤاد ..

وذهبت إلى الرجل أتلطف فى سؤاله وأتهذب فى مقابلته ،
وأرق رقة عجيبة فى محادثته ، وأنثر له من ألم نفسى على صفحات

وجهى ما يشعره بأنى أخ له فى هذا الألم ... وسألت الرجل :
هل لك أيها الأخ الكريم أن تبث شكواك لإنسان عناه أمرك
وأهمه حالك وأبكاه مرآك على مثل هذه الصورة . وأخافه
مصيرك إن أنت أسرفت فيما أنت فيه . وأذعرته نهاية تفكيرك
الذى قد بدأت فيه ؟ ... هل لك أيها الإنسان المظلوم أن تقص
ظلامتك على أخ لك وقع عليه من الظلم بالمقدار الذى أنت عليه
إن لم يكن أربى ؟ ...

وكنت طامعاً فى التخفيف عن الرجل لأنى إزالة ما هو عليه
من هم — وإنما لم يغر نفسى التفكير فى اجتثاث آلامه لأنى على
يقين من استحالة ذلك . وما كان لى أن أفكر فيه وهو يتطلب
تغييراً لأوضاعنا . وأخذا للكثير الكثير من الظالمين ليوضع
فى أيدى الكثيرين الكثيرين من المظلومين ، وقد يكون من
النافلة أن أقول إن ذلك يحتاج إلى وقفة عازمة حازمة يعلو فيها
الحق وترفع رايته ، وينخفض فيها الباطل وتنكس أعلامه —
وما دام إحقاق الحق فى بلد يتطلب مثل هذا المجهود العنيف فقل
على البلد العفاء وعلى رجاله السلام . وابك معى ومع كل منصف
على حق مضيع وعدالة مفقودة وإنصاف معدوم . . .

وأرضى الرجل فيما يبدو لى أن يجد إنساناً يألم لألمه ويبكى

لبكائه ، ويحاول أن يتعرف إلى حقيقة دائه - وتطلق وجه الرجل ولاح عليه شيء من سرور . وأقبل على كما أقبلت عليه وأحس كأني أنا صدر كبير يستطيع أن يستند إليه ويشكو نه ، واصطحبته إلى ندى وجلسنا وثالثنا هو الرابطة بيني وبينه هي لحمة الظلامة الواقعة على كل منا .

واستفسرت الرجل عما هو فيه فاستعبر وجعل ينشج نشيجاً مراً ، واخضلت وجناته بندى عينيه ، ثم تساقصت دموعه ساخنة غزيرة ، وصنعت في وجهه خطوطاً متشعبة تنبع من عينه وتصب شعابها في أرجاء وجهه. فلكأنما الرجل قد غسل وجهه بهذه الدموع الحارة — وتركته وما هو فيه وقلت لعل البكاء ينقع غلته ويبرد غليله ويشفي صدره .

وما جنحت النفس للبكاء مرة إلا وقد أعيتها الحيل في دره ما هي عليه من أوصاب — ولتلك مرحلة من مراحل الكظم والكبت وأخذ النفس على ما تكره قبل أن يكون بعدها أشد منها - وما لجأ إنسان إلى البكاء إلا وقد أخذ الألم بمجامع قلبه واستحوذ الحزن على جميع نفسه، واستجاش الهم به وبرح به كل مبرح - ولا نسان يرى على مثل هذه الحال من النحيب والإجهاش أحوج إلى الشفقة من آخر تبتر ساقه او تقطع يده أو ينكأ جرحه .

وظل الرجل يبكي حتى هدأت قطاته واستقرت نفسه وخمدت نار قلبه - وأغمض عينه ثم فتحها وقال لي في صوت متهدج النبرات مبحوح

المقاطع مضطرب المخارج ـ لكنا نا كلماته تمزج بما فى نفسه من آلام ثم تخرج فتجف فى حلقه من فرط ما هى عليه من حرارة وحريق ...

قال لى : أما حديثى فغير غريب لأنه يتكرر كل يوم ، وكم من الناس يشكون منه ويئنون ولكن لا ت تمرات ولا تمزمعين

قلت : قل يا أخى فكلنا فى الهم صاحب نصيب .

قال : هى كلمات أرددها وعليك أن تذهب فى فهمها ما شئت

قلت : قل وأنا مصغ إليك كما أصغى إلى نفسى دار فى داخلها حديث . . . .

قال : ظلمنى المجتمع فجعلنى آخذ نصف تعلم . وشققت طريقى فى الحياة بهذا الزاد ـ وتزوجت ورزقت بل رزئت بكثرة كثيرة من الأولاد ، وقد خيل إلى أن القيام على أمرهم يسير ـ ولكن صدمنى الواقع وفاجأنى ضيق ذات اليد ـ وضاق كسبى بنفقات بيتى فكنت أتحامل على نفسى وألزمها العسير من الأمر والشديد من الكدح رجاء أن لا تنكشف حالى وتبدو عازتى ويذهب فقرى أحدوثة بين الناس ـ وبينما أنا فى الذى أنا فيه من رأب لصدوعى وكلم لجروحى إذا بى أفجأ بل أفجع بأن صاحب عملى فى غنى عن خدماتى ـ وضاقت الدنيا فى عينى وذهبت أقلب جوانب الأرض وأنقب فيها عن عمل أقوم به أودى وأصلح به من أمر

أولادى ونفسى ، ولكن أوصدت فى وجهى الأبواب وقد طرقتها جميعها - وذهبت إلى كل مسئول وعرضت نفسى على كل ولى أمر ، وأنى لى أن أجد ما أريد والكل لاه عنى معنى بأمر نفسه أو ذويه - ثم مددت يدى أستدين . ثم انعطفت على قليل متاعى أبيع منه ما فوق الضرورى ثم الضرورى . ثم طرد أولادى من المدارس ورميت بهم فى المحال يخدمون . ومع كل ذلك ظللت فى فقر مدقع وحاجة ملحة - فانظر إلى كم أعانى وإلى كم يضطهدنى المجتمع . لكأن حياتى وحياة أولادى لست عناصر لهذا المجتمع المريض ...

فقلت له مهدئاً روعه : لا يأس فلعل الله يجعل من بعد عسر يسراً ... وجالد وغالب فى هذا المجتمع الجائر الظالم فلربما كانت ساعة ينفرج كربك فيها وتجد من بين أولى الأمر من يعنى بك وبمشكلتك فيلحقك بعمل تستدر منه نطافا تحول بينك وبين الانزلاق على مزالق الرذيلة والانحدار نحو هوة الفساد وذهب على الرجل ليواصل جهاده الشاق فى حياته الشائكة . وبدا لى أن الأمر لابد مفض بالرجل إلى الجريمة منته به إلى الكفران بعدالة هذا المجتمع . وعندئذ فالقانون من ورائه ثم السجن ثم تشرد الأولاد وتخصصهم فى حياة الإجرام ، وحاولت بشق النفس أن ألتمس علاجاً لمشكلة الرجل ولكن صدمت كما صدم -

.. صدمت بأن الحاجة المقضية بيننا إنما هى لصاحب الجاه والسلطان والزلفى من الحاكم والآمر والناهى ـ وعييت بإيجاد الحل وخبطت ولطمت ـ ودققت النظر فوجدت هذا المصير إنما ينتظر الكثير من الناس، وهذا المآل ربما كان مآلى أنا ـ وحينئذ تحركت بنفسى الأنانية فقلت لابد من وضع حد لهذه المظالم. وبينما أنا فى هذه اللجة من التفكير إذا بصديق لى من طبقة المترفعين يقبل مهموما مضطرب النفس حائراً، وكأنه قد حيل بينه وبين رزقه ـ فقلت ماذا دهاك أيها الصديق وعهدى بك أن أراك ضاحك السن مبتسم الثغر هاشا باشاً لا تعرف الكآبة إلى نفسك سبيلا، ولا يجد الحزن إلى قلبك مدخلا ولئن وجد فلألف مخرج ومخرج تأتى به إلى البعيد النائى. وتذهب به حيث لا يمكنه أن يعود إليك ثانياً...

قال: أما من الآن فلن ترانى إلا على أسوأ حال وآلم وضع وإن الآلام التى لم تعرف إلى قلبى سبيلا ولا إلى نفسى مدخلا قد دخلت إليها واستقرت فيها وطاب لها المكث ولذ لها البقاء ولم أعد أتصور نفسى بدونها...

قلت: ما الذى جد أيها الصديق حتى يحيلك مستقراً لهذه الآلام بعد أن كنت تجهلها وتجهلك؟..

قال: إنى محدثك حديثى وموقفك على جلية أمرى... وأنت تعرف كثيراً عن نعمتى وثرائى وسعة ما أنا فيه من رزق

ومع ذلك يا عزيزى فالثروة لم تنقص شيئا إلا انى أصبحت فقيراً الفقر كله معوزاً أشر العوز — وقد يكون حديثى هذا عجبا إذ كيف أمتلك كل هذا وأشكو الفقر ! .. ولكن ليس للعجب أن يجد إلى قلبك طريقا حين تعلم سبب ذلك وعلته —

قلت : قل يا صديقى فأنا اليوم مصغ للكثير من المشكلات

قال : أتعرف فلانة التى حدثتك عنها كثيراً وذكرت لك من جمالها وحسن دلها ما ذكرت . وحكيت لك عن تصبيها وتقتلها وفتك نواظرها وأسر محاجرها ما حكيت ؟ قلت : أذكر من ذلك نتفا كنت كثيرا ما نرددها على مسامعى كلما لقينى وإياك حديث، أو جمعنى وإياك مجلس — قال : وتعرف مقدار حبها لى وتدلهى بها ؟ قلت : أذكر أنك ذكرت لى شيئا من ذلك فقل ماذا يهمك ويجعلك على ما أنت عليه من الم ؟ ...

قال : إنها تلك التى لعبت بلبى فهمت بها واندلهت بحبها ثم هى الآن تنذرنى بقطيعتها وتؤذننى بخصامها ، وأنا لن أقوى على ذلك وهى معبودتى ومهوى فؤادى .. وأنا الآن واضع كل مالى وجاهى فى كفة ورضاها فى الكفة الأخرى ، ولا شد ما أرضى حين ترجح كفة رضاها وتشيل كفة مالى — فأنالها وأخسر كل شىء ... ثم انطلق يهذى بكلام يناجى به محبوبته ويذوب فيه صبابة ويماع جوى ،

ويبكى بكاء الوليد ويبدى الذى ما كان حقه أن يبدو ويخونه جلده ويخف وقاره ... قلت له : لا عليك يا صديقى — فأنت تفعل ذلك ولا واعظ ولا زاجر ، ومن أجل مالك وجاهك ألقى لك القانون حبلك على غاربك فترض إنسانة بآلاف الألاف وأنفق عليها ما وسعك على حين غيرك من الناس يحن بل يموت حنينا إلى كسرة الخبز ، لا إلى هذه الآلاف المبذولة فى رضا راقصة . . . فأعرض عنى وانصرف ثانى عطفه هازئا بما أقول ساخرا بما أطلب منه ، ولوى عنى وتركنى غارقا فى بحر لجى من التفكير .

ونظرت فإذا أنا وحيد فى جلستى أطيل تفكيرى وأجيله — وإذا بمفارقة عجيبة تنتج عن هذا التفكير ، كنت من قبل أحادث إنسانا يهيم بلقمة العيش ويجهده بل يضنيه الحصول عليها ، وهو من أجل ذلك ضارب فى الحياة بخطى حتمت عليه النظم أن تكون غير ذات جدوى — وأنا بعد ذلك أحادث إنسانا يزهد فى الترف والنعيم لقاء رضا راقصة ، ومن أجل ذلك هو يضع كل أمواله الطائلة وجاهه العريض فى قبضة من يرضى هذه الراقصة عنه — أجل ما أعجبها مفارقات ! .. هذا يتشهى لقمة وذاك يزهد فى مائدة ، والاثنان تظلهما سماء وطن واحد — هذا يكدح فى

سبيل درهم يمسك عيله حياة كثير من النفوس. وذاك يبذل راضيا آلاف الدرهم إشباعا لرغبة حمراء واستجابة لشهوة نكراء والاثنان قد نبتا فى بلد واحد وغذيا بلبان واحد — فيالها مفارقة عجيبة عجيبة لاينتهى منها عجب!.. إنها تدع النفس حيرى والعقل مبلبلا، وتبكى القلب على إنسانية معدومة وشفقة مضيعة وإنصاف عز وجوده . .

وما دام ذلك كذلك ولا سبيل إلى تغيره فانتظر غضب السماء على النـــاس وتلط الأرض بهم — وانتظر ماأنت منتظره من صواعق ونوازل ومصائب ونائبات — وانتظر تدهور الأخلاق والاعراق فى الجريمة والهوى فى منحدرات العذاب .

ولكن سيجرم المجرم ويقترف الآثم وله عن ذلك مندوحة ومندوحة ولو أنصف الحق أصحابه على قلتهم لعاقب بذلك فئة المترفعين ... ما أحوج العدالة إلى أن يسرق الجائع فيكبل صاحب التخمة ، وينهب العارى فيساق المسرف فى لباسه إلى ساحة القضاء .

ليت شعرى ماذا جنى الانسان على أخيه الانسان حتى يظلمه ويهضمه . ويشتط فى حرمانه وتعذيبه ، وما من نفس ترثى ولا عين تبكى ولا عدالة تنتصف ؟ .

قد نرضى أى لون من الفوارق . أما أن تنعم فئة لتشقى أخرى ، وتعز طائفة لتذل طائفة ، ويسرف فى إعطاء قوم ليسرف فى منع آخرين فذلك ما لا تقره شريعة الصحراء فضلا عن أمة متحضرة تعيش بين الناس زاعمة أن (الديموقراطية) مالئة عليها أرضها والمساواة شاغلة عليها سماءها .

أيها الأشراف والكبراء احذروا كل الحذر صولة الجائع وجولة العريان ونزوة المحروم وغضب الحليم... وتهيبوا ماوسعكم التهيب اليوم الذى ينادى فيه الناس : أن هاتوا حقوقنا وردوا مظالمنا وشاركونا فى لهب الحياة أو دعونا نشاركم فى رغدها . احذروا اليوم الذى تحملون فيه على إعطاء الناس حقوقهم حملا احذروا هذا اليوم فإنه إن أتى فستصبحون وكأن لم تغنوا بالأمس .

غرائب

وإن تعجب فعجب ما يفعل الناس اليوم !!!

وإن تستوحش فوحشة ما عليه الناس من أمر !!!

وإن تستغرب فغريب ما ترى منهم وما تسمع !!!

هذان رجلان يعيشان فى بلد واحد . . . أما أن نقول إن أحدهما يأكل كذا والآخر يأكل كذا ، فذلك ما هو معلوم بدءا فى أيامنا هذه ـ وأما أن نقول إن أحدهما يعطى ويعطى حتى لتكتظ عليه خزائنه ، وأن الآخر يحرم ويحرم حتى يعرى وتلتصق جلدة بطنه بظهره فذلك ما عهدنا أن نراه بين ظهرانينا معشر (الديموقراطيين) زعماً .. ولكن سنقول إن كلا من الرجلين مريض ، وأن كلا منهما ليتشوف إلى الشفاء ويحن إلى العافية بمقدار ما حببت الحياة إلى نفس الإنسان ـ والقائمون على أمرهما جد مختلفين أما القائمون على أمر أحدهما فذوو ثراء ونعمة وذوو بسطة فى كل شىء ـ ولو كانت عافية تباع لابتاعوها من فرط ما هم عليه من غنى عريض وجاه مهيب . . وأما القائمون على أمر الثانى فأصحاب فقر وخلان حاجة وأرباب عوز ـ

ولو كانت حياة تشترى لباعوا حياة المريض فاراحوه واستراحوا وأكلوا ولبسوا بثمن حياته وذلك لفرط ما هم عليه من رقة حال وضيق ذات يد ...

فإذا نظرت إلى بيت المريض الأول وجدته قصراً منيفاً بعيد الأرجاء حفت جنباته بالزروع والثمار والورود والأزهار، تتيه السعادة خيلاء أن وجدت فى قصر كهذا فإذا ما قلبت نظرك تبحث عن بيت المريض الثانى وجدته كوخا صغيرا حقيرا لا يتأمل المرء منه طائلا . جدران أربعة تسور قطعة من أرض ضيقة كريهة المتنفس بغيضة السكنى ، وعلى قدر ما يمدح ذاك يقدح هذا ، وإن جميع الأمراض والأوبئة لتعرف هذا البيت حق المعرفة ، وإنها لكثيراً ما دخلته وأقامت به وأرضاها المقام ، ثم نزحت عنه وقد نقص عدد أهله واحداً أو اثنين . ثم عادت إليه ثم ذهبت عنه . وهكذا فهو مغدى لها ومراح تدخله جائمة على صدر أحد أهله ، ثم تخرج منه مصطحبة معها روح ذلك المريض، وما أثاث هذا البيت ومتاعه بأقل منه إقذاء للعين وإيلاما للنفس . . .

ونحن الآن ننظر إلى كليهما فنجد المريض الأول يتوافد عليه الأطباء ، ويحتشد حول سريره ذوو الخبرة والرأى الأسد —

ويشخص كل منهم مرض ذلك المريض المترف. ويرى له ألوانا من الأدوية يتجرعها وكرات صغيرة وأنابيب طويلة، وما اختفلت ألوانه وتباينت أضربه من هذه الأدوية، وهذه النافذة تفتح بأمرهم من كذا إلى كذا وتلك تغلق من حين كذا إلى حين كذا، وهذا الباب حرام فتحه وذاك حرام إغلاقه. وملعقة الطعام التي تتناول بعد كل وجبة أدوية يشترط فيها أن تكون كذا وكذا وبها من العناصر كذا وكذا — وساعات الهدوء وساعات اليقظة وساعات النوم كل ذلك يحدده أولو العلم وذوو الخبرة — والأطباء لا يبرحون البيت فإذا جاء وذاك ذاهب، وما ذهب ذاك إلا ليحضر ذلك، وهكذا يرى الارتباك والحيرة والقلق والاضطراب قد ملأ البيت وعم نواحيه. وإذا ما رحنا إلى بيت المريض الآخر هالنا أن نجد المريض يتأوه ويئن ولا يخفف عنه من آلامه وأسقامه، ولا ساهر على رعايته وعنايته — وسوء الغذاء إلى سوء المقام إلى سوء الصحة قد جعلت الرجل هيكلا عظيما متحركا. حتى إن الريح الهينة اللينة لتدمى أعضاءه وتؤلم أطرافه — وكان الرجل ملازما فراشه لا يبرحه، وقد تحالفت عليه الهموم والآلام والأحزان وسوء المصير ووخامة العاقبة. وبات يفكر بهذا الذهن العليل والعقل المريض فيم ينتظره من

مآل مشئوم فزاد سهداً إلى سهد وأرقا إلى أرق. وغدا نهاره مترعا بآلام المرض وليله مفعما بآلام النفس – وكان ليله يطول ويمتد كأنه لا نهاية له ولا صبح يرجى من ورائه، وكان صبحه يبعد ويبعد حتى ليخيل إلى المريض أن صبحه قد حالت من دونه وقفة دورة الفلك التي تقف خصيصاً ليزداد الرجل ألما إلى ألم وهما إلى هم، وكان الرجل يمد لأى مجهدا متعبا. يتكشف له ليله عن صبح كريه بغيض إليه بما يحمل من معاناة المرض وشدة وطأته – وكان النهار يطول كذلك طولا عجيباً – فبين فجره وبين ضحاه ساعات عديدة بين أن يوم ثقل على الرجل بمر الآلام وقاسى الأوصاب. وما فكر الرجل يوما ولا فكر ذووه بأن يحضروا له طبيباً – وكيف يحاولون ومن دون ذلك الحاجة للعزة وقد حال الفقر بينهم وبين ما يريدون. بل قد حال بين الرجل وبين شفائه، والفقر – يا قاتله الله! – عدو مغالب قل أن تلين له قناة، وما صارع إلا وصرع وما غالب إلا وقد غلب، وما امتشق سيفاً إلا وقد أرواه من دم نزيله – وعداوة الفقر أصيلة بينه وبين الإنسان.. فما بالك بها إذن والمرض طارح الرجل على فراشه ملق به على مهاده الأخير؟

من يدرى لعله لو لم يكن الفقر لأمكن برء الرجل من هذه العلة الخبيثة، ولغدا وراح حين يغدوا الناس ويروحون،

obeikandi.com

ولكدح ولمتح ولغالب وطالب ولربما كان له من الغنى نصيب .

وأهون بالفقر عدواً حين تتيسر للإنسان أسباب حربه وأسباب هزيمته ، وأصغر به من منازل حين يتاح للإنسان أن يمشق فى وجهه سمهرياً بتاراً من عدالة المجتمع وإنصاف الناس .

واستبد المرض بهذا الفقير البائس وأمعنت العلة فى التمكن منه وقارب الرجل الموت . أو كاد ، والعدالة لا زالت لا هيه عنه ، وعين الإصلاح لا زالت غير مفتحة عليه . والرجل آخذ فى الاقتراب من حافة القبر ، والأهل ليس لهم إلا دموع يذرفونها فيجودون بها سخية حارة محرقة ، وما فوق ذلك فهم عنه عاجزون . .

وإنه لغريب حقاً أن تعيش أسرة هذه حالها فى مجتمع - يالها قسوة يرى الولد أباه وهو ذاهب إلى الموت راحل عن الدنيا بعد قليل ومع ذلك فهو عاجز عن أن يقدم لأبيه جرعة دواء تعلها تشفيه ولقمة خبز شهية لعلها تقيم صلبه .

أى عدالة تلك ياقوم ؟ . . ثم ماذا يحس هذا الولد نحو مجتمع هذه معاملته لأبيه ؟ . . أم أنكم أيها الظالمة الجائرون قدرتم للولد نهاية كنهاية أبيه ؟. فما يعنيكم أن يبغض أو يحب ؟ . أم تقولون إنه مهما أسرف فى الحب أو انتط فى البغض فلا علينا

مما يجىء به عقب ذلك ؟ . . ثم ماذا يجىء به ذلك الضعيف المهزول ؟ . ليفعل ما بدا له وليحب أو يكره وليرضى أو يغضب إنما يؤبه لذوى الشأن وهذا لن يكون منهم .

هذه فلسفة المجتمع نحو أفراده فيم يلوح لى وإنها لعقيمة - وتلك صورة لإهمال المجتمع أبناءه وإنها لبشعة تقشعر منها الأبدان وتتمزق منها النفوس . .

ثم تقلصت عضلات الليالى وانكمشت أعصاب الأيام ، وأخذ يزداد تقلصها وانكماشها حتى بلغت حداً عربياً . وشاءت الأقدار أن تتمدد وتتفرد وتسرف فى امتدادها وانفرادها فتنطلق حاملة روحين لم يمضين برحت بكل منهما الآلام .

ومن ثم فقد ضرب مثل فعلى للإنسانية جمعاء أن تسمعه وأن تحسن الإصغاء إليه . . أجل ضرب مثل فاستمعوا له : . . . . ها هى ذى العدالة تتحقق فى قبض هذين الروحين ، وإن اليد التى قبضت هذه الروح المترفة الناعمة المستحوذة على كل لذة وكل نعيم هى بعينها التى قبضت تلك الروح البائسة الشقية التى ذاقت البؤس أكؤساً وجرعت العلقة غصصاً ، إن اليد التى قبضت هذه هى التى قبضت تلك وما فرقت بين غنى وفقير ولا بين معطى ومحروم .

ألا ما أحوج الناس إلى أن يتدبروا هذا ، ويفكروا طويلا طويلا فى هذه الأمثال المضروبة كل يوم وكل آن .. ألا فليؤمنوا بالمساواة التى هى حق كل إنسان على هذه البسيطة .

يا للإنسانية يوم تظلم طائفة ثم تأتى بعدئذ السماء فتقتص ، وما أشد قصاصها وما أضناه إنه حينئذ لكريه شديد ، وإن النفوس لضيقة به أشد الضيق وإن المخرج من ورطته لغاية فى العسر ... قصارای فى التذمر من هذه الأوضاع أن أنتقل بك أيها القارىء إلى أهل الميتين وما صار إليه حالهم ... أما الميت المترف فقد عمل أهله على أن يلازمه ترفه حتى فى توديعه إلى مقره الأخير - فالجموع الكثيفة خلف نعشه تمشى أمامهم الموسيقى الباكية ، وتتبعهم طبقة ممعنة فى الترفع أبت تشييع الميت إلا فى سيارات ، ثم يسرف أهله فى إقامة المأتم ويجاوزون المألوف ويخرجون عن المتعارف رجاء أن يترف الميت حتى بعد إيداعه الأرض التى لا تعرف رفيعاً ولا وضيعاً ، وأغلب ظنى أنها احتضنته كارهة كارهة لأنه كثيراً ما أساء إلى أبنائها فهو ابن عاق وولد متمرد .

أما الميت الفقير - فقد أدرج فى ثيابه ، وأودع الثرى وشق له اللحد وطواه رمس متواضع ، وقد احتضنته الأرض وبرت

به أكثر ما يكون البر ، وأعطته حنانا كثيراً ما حرمه وأرته ألواناً من العطف ما أكثر ما تشهاها وأحسنت إليه الأرض الجامدة على حين أساء إليه الإنسان الذى أودع قلبـــاً وأعطى نفساً ... وأودعه أهله الثرى وانصرفوا وكأن لم ينقلوه إلى حيث لا يرجع . إذ قد انصرف كل إلى ما يشغله ...

يالضيعة العدالة ، يالضيعة العدالة !!!

أليس غريباً أن يبالغ فى تمرين احدهما وتطبيبه ويبالغ أيضا فى إهمال الآخر وتركه؟ أين نحن من ركب التقدم وعجلة الإنسانية ؟ لست أدرى ؟..

أليس غريباً أن ينفق على أحدهما ببذخ ويقتر على الآخر أيما تقتير حتى يموت هذا ضحية البذخ ويموت ذاك ضحية التقدير؟ أين نحن من المساواة ومن إعطاء الناس حقوقهم؟ لست أدرى ؟

أليس غريباً أن ينفق على أحدهما طائل المال بينما يذهب أولاد الآخر يتكففون الناس ويستجدونهم؟ أين نحن من الشفقة والرأفة اللتين تتطلبهما يقظة الضمير ؟ ... أيضاً لست أدرى ؟

ألا ما أحوج هذا المجتمع إلى يد مصلح تخلط هذا الجمع الكثيف من الناس وتمزجه بما فيه من خير وشر ونفع وضر ، ثم تصنعه

أنفسا بشرية على أشهى غرار وأجمل صورة - يومئذ يرتاح ضمير الإنسانية وترضى عن بنيها ، وعندئذ لاتجد مثل هـــذه الأحداث الكريهة المنبثة بين الناس ، وعندئذ فالناس راضون عن حياتهم قارون بها ؛ لا تجد سخطاً ولا تحس تذمراً ، وعندئذ تشدو ألحان العدالة وتغنى مزامير الانصاف ، ويحتفل بعيد ميلاد الإنسانية العادلة .

فى زوايا التاريخ

ستسرى سنة الناس فى حياتهم وتعدو كلما سرا ليل وغدا نهار وستدور عجلة الزمان على الناس بما هى دائرة به كلما تعاقب جديدان ، وستمر بالناس محن وتنالهم نعم كلما غرد بلبل وناح حمام ، وتلك طبيعة الحياة تمر بالناس على ألوان مختلفة من سنينها الجدباء وسنينها المدرارة، وترد بهم حياضاً متمايزة من حلو المشارب ومرها ، وهكذا يتعاقب الليل والنهار جاريين على الناس بيسر وعسر ، ونعمة وشقاء ، وشدة ولين ، وعهد الناس الحياة على مثل تلك الطبيعة وما تخلفت يوماً عن هذا النهج ولا نسجت على غير هذا المنوال .

وآية الصلاح فى أمة أن يعيش أفرادها على الحالين شقاء ورخاء وراحة وتعباً ، وعنوان استقامة الحياة فى مجتمع ان ترى ما يسوءك فاذا غدوت وجدت ما يسرك ... هكذا كان يقال وهكذا عرف الناس مقياس الصلاح والفساد ...

أما اليوم فسمة الصلاح فى أمة ان تنظر فلا تجد متألماً ، ولا تقع عينك على بائس أو محروم - ولاغرو فى ذلك ولاغرابة

فالإنسانية آخذة فى الرقى ، وقد ضربت فى المدينة بخطى واسعة وأخذت من التقدم بنصيب كبير ، فالمصلحون اليوم قد مهدوا الطريق التى يسلكها الإنسان إلى السعادة من غير ان تعترضه العارضات او تواجهه العقبات . ولعله من السهولة واليسر بمكان ان يبدأ الرجل الآن حياته راضية ناعمة .

فقد عولجت مشكلات الفقر والحاجة ، وقضى على الشقاء القضاء الأخير ، وقنن المفكرون وسن ذوو العقول من القوانين والسنن ما يجعل الإنسان يعيش فى رفاهية ورخاء .

وإذن . . . فالعقل يقضى بأن الحياة البائسة قد اندثرت مع القرون السوالف يوم كان الناس لايعرفون كيف تكسى أبدانهم ، وإذن ... فالمنطق يحكم بأن الحياة التعيسة قد أمحت آثارها وطمرت السنون معالمها وقبرتها حضاره الإنسان ... وإذن فلا مبرر لأن يجوع الآن قوم ويشبع آخرون ، ولا أن يحرم ناس ويعطى ناس ، ولا عذر يحاول التماسه لهضم الناس حقوقهم ، ولا شىء يبيح عدم تمكين الإنسان من حياته الكريمة ، اللهم إلا ظلما لانستطيع مقاومته وعدوانا لاحول لنا به ولا قوة ، وتمردا على أسس الإنسانية لاسبيل لنا إلى ردعه وزجره . . .

وأنا بسبيل نقد أوضاعنا فى بلدنا هذا — وعلى أهبة تحديد ماعليه مجتمعنا من تدهور اجتماعى كان نتيجة لظلم وعدوان

صارخين — ومن أجل ذلك فأنا منطوح بالقارىء في زوايا التاريخ أنقب وأجد في البحث عن ظلم المجتمع لأهله واضطهاده لذويه — ثم أقابل ذلك بما نحن عليه ليكون القارىء على بصيرة من أمره ويرى في أي العصور نحن نعيش وبأي الخسف نحن نساس ومع ذلك فكأن لم تحل بنا مظلمة وكأن لم يرد بنا ما نحن له كارهون ...

كان أول ظلم وقع في الأرض يوم قتل قابيل أخاه هابيل وحرمه حياته وغرس في الأرض أول بذرة للظلم والاضطهاد وسقى الأرض لأول مرة دم الإنسان الذي تمجه وتمج أن ينساب على وجهها — وأرعدت حينذاك السماء وأبرقت وأرسلت من شهبها وصواعقها ، وتململت الأرض تحت وطاة هذا الانسان الظالم القاتل .. ولأول مرة تنتهك حرمة العدالة وتمتهن قداسة الانصاف واستنت الرحمة حين ذلك سنة تخفى معالم الجريمة وتبر بصرعى العدالة وإن كنت لا أرى برا بجثة لا يضيرها أن تعطى طعاما لنواهش الطير ، ونوازى الذئاب . اللهم إلا أن يكون هذا تشريعا لحرمة هذا الانسان واحتراما له حتى في موته — وتلك لاشك عدالة مافوقها عدالة وتشريع لا يوازيه تشريع — وما بال هذا الانسان الذي يحترمه الخالق ويترفع به عن أن يعرى وتبدو

سوءاته وتظهر مقابحه ماباله الآن يذل ويستخزى امام احتقار واحد من الناس مثله يظلمه فيسكت، ويحرمه فيصمت، وكأن لم تكن هناك قيم تتجاهل وحقوق تؤكل ... ! !

أجل.. إن هذا الانسان لشيء عظيم — إذ الكون كله مسخر له ومسير بأمره، ومع ذلك فهو قد يسخر لغيره ويسير على هواه ... ألا ما أحمق الانسان يوم يرضى على نفسه وضعاً كهذا ...

وأنا بعد ذلك لست بمستطيع أن أتتبع حوادث الظلم فى كل مكان .. وإنما هى ساعات أقضيها بين الأسفار أقلب صفحاتها فأخرج منها وقد علمت عن أمر الانسانية ما كنت جاهله — ثم أنا ناقل إليك شيئاً من حادثات تعسف الانسانية بعضها بالبعض ...

كان ذلك عند قدماء المصريين قبل ميلاد المسيح — وقد قرأت فيما قرأت عن المقصلة الفرعونية، وكيف كان يتردى فى هويها المساقون إلى القضاء والمأخذون بالظنة والمعاقبون بالشبهة، ثم اشتط قوم فى تعذيب آخرين — ولئن نظرت إلى ما شيدوا من معاقل وحصون ومقابر خالدة على مر الليالى وتوالى الأيام، وقد تتابعت عليها العصر والآباد ومع ذلك فهى مثال القوة

والمتانة، وما كان ذلك كذلك إلا لفرط مابذل الناس فى تشيدها من جهد جهيد وعنت معنت - لوجدت الف دليل ودليل على ان الناس كانوا حينذاك سادة وعبيدا .وأشرافا وضعفاء، ومخدومين وخدما . وهكذا ظلم بنو الانسان فى هذا العصر العميق الممعن فى البعد والتخور .وقد كان من نكد الدنيا على هذه الفئة أن تظلم.

وإذا ماانحدرنا نحو التاريخ وما بعده مشيناً فى طريق طويل، وقطعنا شوطا بعيدا دون أن نسمع أنينا لمظلوم او بكاء لمضطهد، اللهم إلا قلة قليلة من جبابرة سادوا غير مسودين وارتفعوا من الظلم بخاصتهم الوانا ربما كانت من التفاهة بمكان ، وهكذا تطارد السنون بعضها بعضا وعين الباحث عن الظلم قارة وقلبه مثلج وهو راض ايما رضا أن لم تقع عينه على ما يقذيها ولم يرتع قلبه عند شيء يؤلمه ..

ثم إذا عاش الإنسان قليلا مع النظام القبلى فى الجزيرة العربية ربما رأى شيئاً من ظلم بين السيد وعبده أو بين القوى والضعيف. وإذا ما جاء الاسلام وتتابع على عرشه الخلفاء والملوك رأيت طلائع العدالة تبدو وتلوح ، ورأيت ثم أحد ملوكهم يجمع من الناس حقوق بيت المال ثم يوزع على كل صاحب حاجة . وبكف كل سائل ، وترد الأموال إلى بيت المال لأن الفقراء عدموا

ولأن المحتاجين قد قضى عليهم عدل المجتمع - ولعمرك إنها الفترة من الزمان مرت وطواها التاريخ وأصبحت فى زواياه ومع ذلك فغاية ما يرضى الانسانية الآن أن تنظر فلا تجد محتاجاً ولا فقيراً ولعل هذا الصراع القائم بين بنى الانسان يخمد وتنطفىء ناره ويعفو أثره حين يشبع الجائع ويلبس العارى ويعطى المحروم.

هل لبنى الانسان اليوم أن يرجعوا بأنفسهم إلى الوراء قليلا فينظروا إلى الوراء قليلا فينظروا إلى هذه الأعمال الخوالد، وتلك السير الكريمة التى سارها الناس على سراج من العدل والفضيلة والانصاف فاذا بالمنادى يجهر ويجأر قد قضى على الحاجة بيننا ولم يعد على ظهر أرضنا فقير أو بائس او محروم؟ هل للانسانية اليوم ان ترى لما هى عليه من حال، وتغار ان سبقها قوم إلى الاصلاح مع ما نسمهم به من تأخر تاريخى ووجود فى الحياة قبل ان تنهض عقول الناس فتفتن فى إيجاد وسائل التقدم والمدنية؟

لعل الغيرة تحرك بالتنافس نفوسهم وبالعمل أيديهم فيتبارون فى إسعاد الناس لا فى إشقائهم كما هم عليه من حال - وينبرى هذا آتيا بالجديد المثمر فى راحة الناس معارضاً به ذلك الرث البالى ويقف هذا ليحاج ذاك ويبطل زعمه وهكذا يعمل الإنسان لصالح الإنسان ...

ثم تسير الحياة بعدهذه الفترة التى انعدم فيها الفقراء وضاقت بهم الأرض فلفظتهم سيراً هنياً لينا فيه من الرضا وفيه من التواد والتحاب بين الناس ما فيه - حتى ينتقل قوم من المسلمين إلى الأندلس - ليمثل بهم ولتقع عليهم التعنفات وليوصم جبين الإنسانية من جديد ، وليدى وجه التاريخ مرة أخرى ولترتاع أفئدة الرحماء من جديد ولتنفطر قلوبهم فى صدورهم ولتمزق أحشاؤهم فى معاهم من تحسر على إنسانية ضالة فى حيوانية، وعلى رحمة مطمورة فى قسوة وعلى عدالة أتت عليها الأنفس الشرهة المنهومة ...

كان ذلك حين ضعفت شوكة العرب هناك وانحلت عروتهم وذهب بعضهم يكيد لبعض عند أعدائهم وقد شغلوا جميعاً بأهوائهم ومآربهم - فاندكت على أثر ذلك حصونهم وذهبوا مضرب المثل فى الظلم وكيف يقع وفى الاضطهاد وكيف يكون - وغدت أعين الناس تبكى وتنتحب كلما وقعت على هذه الأهوال وتلك المآسى - ولعل محاكم التفتيش آية واضحة على صدق ما نقول وفى هذه الفترة استشرت الحيوانية بالإنسان فتجرد من إنسانيته وبات ينهش ويزو ويغتال ويفترس حتى كثر الدم المسفوح وبجنة الأرض فنفضت به فى وجه التاريخ فعاد سبة ووصمة - ومن دون أن تزول أن يسعد كل الناس أبد الآبدين - وبمقدار ما يستحيل هذا يستحيل زوال ذاك

وإن من إنسان يطلع عليه وإن من بعد شبح هذه المأساة إلا وقد ترك بنفسه الآلام الكبار والأحزان الكثيرة والبكاء النفسي المر المرير ...

ودع الأيام تمضي والليالي تنقضي على وقوع تلك المأساة، وارتقب معي طلاً آخر عما قليل واقع وبعد فترة وجيزة سيجتاح أناساً كثيرين ...

ذلك هو ظلم البابوات واضطهادهم للناس وأخذهم ماليس من حقهم أخذه زاعمين أن الباقية لهم وحدهم ومن أجل ذلك فهم يطالبون الناس بأن يعطوهم الدنيا لقاء أخذهم الآخرة - وأن يتنازلوا عن كل دنياهم ليهبهم البابوات شيئاً من أخراهم ..... واستشاطت هذه المظالم بنفوس البابوات وتعددت المصارع لفقراء الناس وتفشت الحاجة وكثر الجائعون العراة - واستنزف شره البابوات دم الشعب، واستحوذ فيهم حبهم خيلاء السيد والعبد وشغفهم بانقسام الناس إلى شريف ووضيع وأزت بهم الأرض أزا من فرط ما هم فيه من ظلم وعدوان، وثار الثائرون، وجمحت بالناس الثورة فتمخضت عن مصلحين حاربوا الظلم وناصبوه شديد العداء ما وسعهم، وتمادد الناس حبل الخصام وتساجلوا كأس الإحتراب، وكان الصرعى كثيرين، واكتظت السجون

بمن فيها ، ونشبت الثائرات فى كثير من البلاد ؛ وانقسم الناس يومئذ على أنفسهم - فهذا له بسطة من مال أو له رهبة من رجال الكنيسة خوف إصدار قرار الحرمان ضده فهو معهم وفى صفوفهم يقدم لهم جهده وماله ونفسه وضميره ، وهذا فقير يريد أن يأكل أو عار يريد أن يكتسى ، أو متحرر الفكر يريد أن يصل كل إنسان إلى حقه ويرى أن من الظلم احتكار الكنيسة للمال والجاه والسعادة فهو يبذل ما فى وسعه لسد هجمات الكنيسة وإحباط مؤامراتها - وهكذا لا نرى إلا مجاهداً فى الفقر ، أو مجاهداً للفقر .

وانقضت هذه الفترة بسيادة القوى وعبودية الضعيف ، ولم يكن لها أثر فى الناس أكثر من إفهام بعضهم لحقوقهم مما أدى أخيراً إلى الحد من سلطة البابا والاعتراف بحقوق الإنسان ...

وأنا لست بسبيل أن استقصى كل ظلامة وقعت أو كل عدالة رفعت ، وإنما أذكر أمثالا وعظات وألواناً من الظلم لعل لها شبه كبير بما نحن فيه .

ومن شاء فلينظر الآن إلى حالنا وما نعيش عليه من أنواع الحياة ليرى كيف تتفور الهوة التى يصنعها الظالمون بيننا وبين الإنسانية ...

وإذا كانت هذه الأنواع من الظلم قد كان آخرها من مدة خمسة قرون أو يزيد ، أفلا يكون من المخزى أن تعيش بيننا الآن؟

لست ادرى فى أى القرون نحن نعيش ! هل نعيش فى القرن الرابع عشر أو الخامس عشر حتى نحيا وسط هذه المظالم ؟

وإذا فما هذه الضجة الكبرى وما هذا التشدق بأنا نعيش فى القرن العشرين قرن الديموقراطية وإعطاء الناس حقوقهم وسعادة الجميع ! أم أنا نعيش فى القرن العشرين وهو ذروة التقدم والرقى والمدنية الانسانية ! وإذا فما هذه البطون الجائعة والأجسام العارية والحقوق المأكولة !

وأخيراً لايجنى العاقل من حالتنا هذه إلا مثل تلك الحيرة وذاك الارتباك .

وجدتها

أقبل صاحبي ضاحكاً مستبشراً . يفتر ثغره عن سن باسم ، ويلوح على وجهه إشراق نفسه وصفاؤها. وإن اجتمعت أسباب السرور في نفس إنسان وملأت جوانحه وتخللت فؤاده ثم ضاقت بها النفس وبرمت بها الجوانح وملها الفؤاد وتدافعها الجميع وألقوا بها على صفحة وجهه لكان وجه صاحبي حين أقبل إلي يقول (وجدتها وجدتها) !!!

قلت : بربك لا تجعل الظنون تذهب بلبي ولا تدع الفكر يعصف برأسي ولا تلزمني التأويلات فقل ماهي التي وجدتها وإلا خلت أنك حزت سعادت الدنيا ورفاهية الأيام وأنت أشد ما تكون كراهة لذلك - وكان صاحبي فيلسوفا ينظر إلى الحياة بعين قل أن ينظر بمثلها مثله ، وكان يحس ما نحن فيه من غبن ، وكان يرى الحياة على مثل هذا النمط ضرباً من الاحجاف ، وكان يحن حنيناً ملحاً لإصلاح المجتمع وإعطاء الناس حقوقهم ، وكان يؤلمه الألم كله أن يظن به أصدقاؤه الرفاهية على حين هم فقراء معدمون ،

ولقد حصلت المعجزة فعملت الأيام مع الليالى وصروف الدهر مع تقلباته على أن يكون هذا الإنسان فقيراً فقراً لانهاية لنتائجه المؤلمة ـ وكان يعد هذا انتصاراً على عنت الأيام والليالى . وكان طالباً فى إحدى المدارس حين لقيته لآخر مرة ـ ولقد بحثت عنه فلم أعلم عنه خبراً ولكأنما الأرض انفتحت له بعد لقائنا الأخير فتغور فى داخلها ومن أجل ذلك خابت محاولتى فى البحث عنه ـ وساءلت عنه الزمرة التعيسة من أصدقائنا الطلاب فلم يكن علمهم به أكثر من علمى به ...

وقد كان فيما كان ذلك الصديق يلجأ إلى على غفلة من الأصدقاء فيبثنى شكاته ، ويشكو لى أوصابه ومتاعبه ويولى على نفسه الأليات أن هذا المجتمع لايعطى إلا من يدنس نفسه ويعيش فى عداد المجرمين وكثيراً ما كنت أظاهره هذا الرأى وتتوارد أفكارى على أفكاره ـ وكنت آنس به ويأنس بى وما خلا لنا مجلس إلا وكرهنا أن نفترق . حتى لتمضى الساعات وكل منا خجل أن يكون هو البادىء بالقيام ـ وقد ارتفعت من بيننا الكلفة إلى حد إن شئت فسمه حباً ، وإن شئت فقل عنه عشقاً أو قل ما بدا لك وحلا فى ناظرك ـ أما أنا فأقول إنى كنت أتشوق إلى مجالسته

كما لو هناك شيء أجأ إليه فيجعل آلامي آمالا وأتراحي أفراحا.

وكنت أحبه الحب العتي وأهواه الهوى كله وما غاب عني سحابة يوم إلا سألت عنه غروب ذلك اليوم. وما مرت بي ساعة من ساعات يأسي وقنوطي إلا ذكرته وذكرت حلو حديثه وعذب مزاحه. وما كان لي أن أسلوه وقد حل من قلبي هذا المحل ووقع في نفسي هذا الموقع ولعل هذا يعزي أولا إلى طهارة نفسه ونقاوة خلقه وصفاء طويته واستنارة فكره ثم إلى أنه الصديق الأول صديق الصبا ورفيق المدة والألم - وما عرف عن النفس الإنسانية ميل نحو إنسان أكثر ممن يشاركها الآلام واللذائذ وما عهد عن القلب البشري أن يجود من مادة الحب نحو إنسان أكثر من جوده نحو من يشاركه شكواه ونجواه ... وقد يجب أن يلزم الإنسان نفسه نحو مثل هذا الصديق لونا من الوفاء يأخذها عليه أخذا ويحملها عليه حملا - ولكني ما أكرهت نفسي على شيء نحوه فقد تركتها سائرة إليه على سجيتها وطبيعتها أبعد ما تكون عن التكلف والتصنع - حتى لقد كان يعرف من أسراري الكثير ويعرفني من أسراره الكثير ... وكان هو يخلص لي أشد مما أخلص له - وما شعرت يوما نحوه إلا بأني مقصر في حقه

أو هو متجاوز ما ينبغى أن يكون ، ومن هنا كان يزيد حتى له ويطغى ويجاوز القدر الذى أستطيعه .

ولقيته هذا اللقاء الذى أعقب طول الغياب فدهشت وارتعت هل أسقطت به السماء أم انتقت عنه الأرض؟ ثم لم يكتف بهذه الفجاءة بل تعجلى بهذه الكلمة « وجدتها وجدتها » .

ثم جلس إلى وقد عاد إليه وقاره القديم وقال: لعلك قدرت أنى سأقص عليك أمراً هائلا وخبراً عجيباً !!

قلت إن لم يكن مثل هذا فلا أقل منه ... قال دعنا من كل هذا الآن ـ أما أنا فمشتاق إليك أشد ما يكون الشوق وإن أول عهدى بمبارحة سجنى قريب وقد جهدت فى أن ألقاك وقد لقيتك فماذا ترى ؟ قلت وإنى إليك لأكثر شوقا وأشد حنيناً ، وإنى لا أرى شفاء لقلبى إلا أن أعانقك وأضمك إلى صدرى الجائع إليك وأتركك بين يدى دقائق أبرى. فيها نفسى وأشفى غليلى ولا أراك ممانعاً فى ذلك فماذا ترى ! قال إنى إلى ذلك أحوج. وتعانقنا ودموع الفرح تتقاطر وتنسكب حتى لقد ابتلت المآقى وفاضت الشئون ـ وبعد لحظات لا أدرى طالت أو قصرت قال : إنى محدثك حديثاً يتمشى مع فلسفتنا فى هذا المجتمع الظالم أهله جنباً

إلى جنب وقدما إلى قدم ـ وكان يرى رأيي في اضطهاد هـذا المجتمع لنبيه ...

قال : إن لم تكن تعلم فاعلم أن هذا الضحك وذاك السرور إنما هو سخرية من هذه الأوضاع قلت : إلى هنا قل فإني مصغ إليك وقد اطمأننت على أن طول الأمد لم يغيرك على فعلك لا يزال كما عهدته وتفكيرك مازلت أطمئن إليه. قال : أما القصة التي اختتمها «بوجدتها» فهي متكررة كلما تكرر ليل ونهار، وهي واقعة بين طهرانينا وإن كنا لا نحسها . وقد مرت بي وأنا قاص عليك أمرها ثم صمت قليلا ، واستأنف حديثه قائلا : إنقطعت عنك بل عن زمرة أصدقائي فجأة ولزمت بيتاً نائياً عن هذه البقعة وكان ذلك نتيجة لفكرة دارت بنفس فاستملحتها فعملت جاهداً على تنفيذها ، وقد فعلت وكنت مشفقاً إيما إشفاق عليكم وكيف تقابلون هذة المفاجأة ـ فصاراى انقطعت عنكم إلى تحصيل دروسي والسبق فيها ولم أذهب إلى المدرسة فطردتني وذلك ما كنت أبغي. إذ كنت أنظر إلى هذه السنين الطوال فيقشعر بدني من هول ما سأعاني حتى الوصول إلى النهاية ـ ولأجل ذلك قطعت صلتي بكل شيء إلا الدرس ـ ووفرت على نفسي سنتين أو ثلاثة ثم نلت أجازة التدريس بعد فترة من الزمن عانيت فيها من العناء وصارعتني

فيها الحاجة والفاقة فصرعتني وما أكثر ما كنت أبيت طاوى البطن مجهد العقل مهزول القوى ـ وإنها ليال سوف لا تنمحى وإنها لعظات الدهر بعيد أن يزول أثرها وإنها لظلامات للمجتمع عسير أن ينمحى وتمحى ـ ولن أحدثك عن الليل وكيف كنت أقضيه ولا عن النهار وكيف كنت أستقبله ولا عن الفقر وكيف كان ملازمى ولا عن الجوع وكيف كان صديقا حميما لى ـ فكل ذلك أنت به أعلى عينا لأنك تدرك كيف يشتط هذا المجتمع حين يمنع وكيف يشح حين يعطى ...

ولا تسل عن ما يستتبعه كل ذلك من مشقات ...

وأنا الآن أعمل مدرساً فى بعض المدارس وأتقاضى نطافا من فضلات الأموال وأعيش بها كما يعيش أغلب الناس ـ وقد جهدت فى البحث عنكم عقب خروجى من بيتى إلى العمل الجديد لأشهدكم على سخرية المجتمع بنا وبعقولنا ، ولأشهدكم على أن عقلى لا يزال كما عهدتموه ـ أما التى وجدتها والتى تحار أنت فى معرفتها بادىء بدء ولا أخالك الآن إلا قد عرفتها فهى لاقمة العيش ، وساد نا صمت رهيب عقب تلفظه بهذه الجملة وعلت وجوهنا غيمة كثيفة منطوية على صاعقة هائلة قد تأتى على الأخضر واليابس وتذر الأرض قاعا صفصفاً إن هى انقضت عليها ...

وعجبت وعجب صديقي ماتسنى لنا العجب وماواتتنا أسبابه وذهبت وذهب نضرب في متاهة هذا الزمن العجيب . ما وسعنا الضرب والتخبط ...

نعم كانت سنين صديقي كما حكى كسنين يوسف غير أنها ليست سبعاً بل قل عشراً واثنتي عشر ذاق فيها الجدب والقحط وكدح ومتع وجالد وغالب ثم تكلل هذا بالنجاح الباهر والفوز العظيم ، فقد جعلت له الدولة على نفسها نطافا لاتسمن ولاتغني من جوع ثم تفضر أفواه قوم بأن العدالة ناشرة على الناس أعلامها مادة عليهم رواقها ويتمشدق آخرون من أنصار الظلم والجور وأرباب الأموال المغتصبة والرفاهية المنتهبة - ومن خوف على ماهم عليه يتشدقون ... بأن الإنصاف قد شمل جميع الناس .

ولعمرك أن المجتمع الذي يهيم أهله بنقمة العيش ويصنعون لأنفسهم من أجلها سجوناً ويقفون على الحصول عليها من أعمارهم السنين الطويلة ثم بعد ذلك يحظون بها أتفه ماتكون ، وأرخص ماتوجد لمجتمع يجدر به أن تهوى به يد جبار من السماء السابعة لتلقي به إلى الأرض فيحفر لنفسه حفرة ويندثر فيها بأهله وما ضمنوا من حقد وشره وظلم وما حوته نفوسهم من أثره واضطهاد وعدوان . .

ألا ما أصغر لقمة العيش على حاجتنا إليها يوم نتكبد لها مثل هذا المجهود ثم تأتى على مثل هذه الصورة .

وهذا هو صاحب الأجازة ومن قضى فى التعليم زهرة شبابه وميعة صباه . فما بالك إذا بغيره ممن وقفت بهم الحاجة عن أن يتعلموا ؟ . . .

---

obeikandl.com

اللحن الخالد

وإذا سألت عن اللحن الخالد أجابتك أصوات من هنا ومن هناك ، وامتلأت عليك سماؤك ، وأحاطت بك أرضك بشتى الإجابات ، وغدوت تتلقى هذه الاجابة وتلك وأنت حائر فى كثرتها - إخالك تظن أن قد ضربت بحجر بين آلاف العصافير فتفرقت من حولك وسدت عليك أفقك .. يوم طرحت على المسامع « أين اللحن الخالد » .

وليت شعرى بماذا أجبت ؟

هل قيل لك أن اللحن الخالد هو صوت من الموسيقى العبقرية صدحت به أوتار قل أن تجد لها مثلا وترنم به مغنى عبقرى خالد فأحال من حوله الدنيا إعجاباً بلحنه وتمجيداً لصنعه ، فهو مستمد خلوده من خلود الجمال فى شىء والكمال فى آخر ؟

ومن ثم فقد اشتفت نفسك وهدأت قطاتك ورحت تشنف مسمعيك بهذا اللحن الجميل ...

هل قيل لك إن اللحن الخالد ... هو ما غنى به شاد من الطير على عش جميل تحت أضواء الأصيل الأخاذة وعن كثب من مياه

جارية رقراقه تهزه الناعسات من الرياح هزا خفيفا فيه من الرفق وفيه من الرحمة بمقدار ما فى قلب هذا الطائر من نقاء وطهارة ومن هنا من خلود طهارة قلب الطائر استحق اللحن خلوده، فهو باق على الدنيا يرن فى أذنها ما غرد طائر وما شدا بلبل — وعندئذ هزت هذه الإجابة قلبك ورقصته فغدوت راقصاً مرحاً تخال البسمة على إحدى الشفاه دنيا بأسرها من السعادة والهناء، وتحسب اللحن من الطير كل الجمال وكل الخلود ؟ . .

هل قيل لك إن اللحن الخالد . . . هو ما يصدح به الناى الحزين يبكى السامع ويبكى العازف ويبكى كل من وضع فى قلبه شيء من رحمة أو إحساس ؟ ومن ثم فقد برمت بكل ناى يئن وكل عازف يرتل أنشودة تبكى أو لحنا يحرك بالدموع العين ، وطفقت تنشد كل لحن غير لحن الناى الباكى ، وضقت إذاً بهذه الإجابة كما لو أخذ بخناقك عات قوى شديد لا يعرف عن الرحمة شيئاً ولا تعرف الرحمة عنه أكثر من أنه الانسان الوحيد الذى لن تدخل له قلباً ولن تسكن له وجداناً ؟ ومن تأثر العازف بما يعزف أكتسب اللحن خلوده . . .

هل قيل لك أن اللحن الخالد . . . هو ما تجاوبت به الرياح عن أزيزها ، وما اصطكت به الرعود فخلقت هزيمها ، وما

احتكت به البروق فكان ثم وميضها . ومن خلود الطبيعة في تصرفها نشأ خلود ذلك اللحن. ومن أجل هذا فأنت برم بتصرف الطبيعة واختدامها تود لو كانت هادئة وادعة حتى لا تروع بما تكره أو تفاجيء بما لا تحب ...

هل قيل لك إن اللحن الخالد .. هو نواح حمامة الأيك على إلفها وحامي عشها وأسد عرينها . فهي علية باكية شاكية تهدل وتنوح . ولما خلدت الحسرة على فقد الإلف في نفسها خلد لحنها، وسمعت هذا ورأيت نفسك حيرى إزاء ذلك أتنعم أم تشقى ؟ وتبكي لهذه الواهة أم تضحك وحلت لك مثل هذه الحيرة ، فوددت أن لو تحولت الدنيا حمامات تبكي ألافها على أعشاش...

هل قيل لك ان اللحن الخالد ...هو زغرودة تنبعث من قلب وينطلق بها لسان ولكن قلب امرأة غاب وحيده وأوشكت أن تنفض من إيابه يديها ثم إذا بها تنظر فتراه فيكون ملء عينها ونهب سمعها فينطلق لسانها من غير ما تدري بهذا اللحن الجميل ، وبمقدار ما انطبعت عليه نفس الأم من حب لوحيدها وبمقدار ما لازم الأم فرحها بعودة هذا الوحيد بمقدار هذا ينطبع اللحن على الخلود ويلازمه ، ولأجل ذلك فأنت ناعم بكل ما تسمع من زغروة أم بعودة وحيدها ...

هل قيل لك إن اللحن الخالد هو ... صرخة تجيش بنفس مكلومة وقلب مقروح وكبد مجروحة ويمتلىء به فم والدة ثكلى ذبح وحيدها فى حجرها ولا حول لها ولا طول ...

ولما كانت صرختها خالدة فى نفسها تتجاوب بها أركان قلبها فهى لا تنساها وإن نسيت ذبح ذلك الوحيد كان اللحن خالداً. ولأجل هذا فأنت ساخط متبرم بكل طاغ جبار يتسبب فى مثل هـــذا الألم الأليم ...

هل قيل لك أن اللحن الخالد هو ... شىء من هذا أو شىء من ذاك فرضيت أو كرهت . وسعدت أو شقيت !

أما أنا فأقول ، وأما الانسانية فتقول، وأما الواقع فيقول، وأما صميم الحياة فيقول . وأما لهب الحياة فيقول . وأما ظلم الدنيا فيقول ، وأما سعير الانسانية فيقول : إن اللحن الخالد هو أنين الجائع وآهات العارى ، وتأوهات المحروم ...

أرأيت إلى أخلد من هذا اللحن قط ؟ ألست معى فى خلود هذا اللحن وبقائه على الانسانية مادام فيها إنسان يظلم وآخر يظلم

ألا ترى معى أن هذا اللحن خالد على الدنيا مادام فيها إنسان يعطى وآخر يحرم ؟

ألا ترى معى أن الخلود فى لحن هو ذاك ؟

والخيبة فيك إن كنت لا ترى معى هذا ...

قالت تدللنى

كنا قد أخذنا مجلسنا وخيمت علينا سيماء الرضى والسرور ولاحت على مجلسنا سمات الاطمئنان والهدوء - وكنت وإياها ثانى اثنين فى مجلس الغرام - وأخذت منها مجلس العاشق من معشوقته... وطفقنا نتناجى ونتشاكى وكنا بعيدى عهد باللقاء - وكانت الشقة بيننا قد بعدت وتباعدت وكأن لم يكن ثمت طمع فى لقاء من فرط افتراق - ولما التقينا هذه الساعة من هذا المساء بدأ كل منا يدلل الآخر ويلاطفه ... وقد كنت جافا خشنا من طول ما ابتعدت عنها وقد علمتنى فيما علمتنى كيف أرق وكيف ألطف وكيف أرضى الناس - وتعلمت منها فيما يتعلم الناس من معشوقاتهم الكثير... تعلمت منها الوداعة وطيب القلب والتسامح والإغضاء عن الاخطاء . . .

وأرى الانسان إن لم يفتح الحب باب قلبه فهيهات أن يفتح - والحب شعور وجدانى ينبعث من قلب مرهف بإحساس جميل - فما بالك به إذن إذا كان المنبعث نحوه إنسان له قلب وإحساس - أظن سعادة الدنيا شىء وهذا الحب شىء آخر ...

وهل ألهم الشعراء إلا الحب ؟

وهل أوحى إلى الفنانين إلا الحب ؟

وهل تتفجر العبقريات وتظهر كوامن الناس إلا بعد أن يلعب بأفئدتهم الحب ؟

وهل سعادة الدنيا إلا فى الحب ؟

وما ذا ترى فى إنسان يقول إن النفس الانسانية صندوق مغلق لايفتحه إلا الحب ؟ وذاك الذى يقول إن نفس الانسان فيها من المعانى الجميلة مالايظهر حسنه إلا شىء جميل لايكون غير الحب ؟ وذاك الذى يقول إن النفوس ينبوع فيه الكثير من المحاسن ولا شىء يدع هذا الينبوع متفجراً سيالا إلا الحب ...

قالت تدللى : لابد من أن أرضيك هذه الليلة مهما كلفنى ذلك وجشمنى ... قلت : على رسلك ياعزيزتى ولا تكلفى نفسك مالا تطيق ولا تدفعى بها فيما لاقبل لها بالمضى فيه ...

قالت : مالى أرى الكلام غير الكلام والمنطق غير المنطق ؟

قلت لاتعجبى أيتها العزيزة ـ فقد تغيرت النفس فأصبحت على ما تعهدين . . وإن إرضاءك أمس غير مجد اليوم وهكذا الدنيا كل يوم فى تجدد وأهلها كذلك . . .

قالت : وهذا شىء جديد !!! قلت : أجل إن كل شىء يتجدد

ويخلع اليوم مالبس امس ويرتدى غداً غير رداء اليوم - وأرى نفسى الآن غير نفسى التى عهدتها وعهدتك ولا على من حرج إن قلت إنى أراك اليوم غيرك بالأمس ...

قالت : إذا قل ماهذا اللون الجديد الذى ترتئيه من الآن فلشد مايرضينى أن أسمع صراحتك فى ...

قلت : كنت وإياك أمس نتساقى كأس الحب وليس هناك معكر أو منغص ومن ثم فقد كانت كئوسنا مدرارة بكل سائغ عذب شهى محبب إلى النفس - قالت : وقد ارتاعت أما اليوم ؟ قلت : أما اليوم فهناك ألف ممكر ومعكر ومن أجل ذلك فأنا أراك اليوم غيرك بالأمس بالأمس - كنت تهبين لى السعادة والهناءة صرفا أما اليوم فليس ذلك فى حولك ولا حيلتك وتلك نقطة التغيير - قالت : فمن لك إذن بشيطان الانس يهبك اليوم ما كنت أهبك بالأمس ؟ . . . .

قلت : قد عز مطلبها ...

قالت تدللنى :

وما بك يا عزيزى ؟ وماذا تريد من دنياك ؟ . فقلت : إنى افكر فى أشياء لا تخطر لك على بال . أريد الإنصاف للإنسان واليقظة للضمير والعدالة بين الناس . . أريد ألا يكون فى الناس

مترف متخوم بينما يوجد فيهم جائع محروم . أريد المساواة الحقة والإنسانية الصادقة والاشتراكية العادلة والاخاء الصحيح .

فأجابت مذعورة : أبك مس من خبال خبيث أو مبدأ هدام ؟ وأين ما كنت تتغنى به من صبوات وفتون ؟ فقلت : ذلك عهد قد تولى ومضى ، وقد شغلتني شواغل الناس قبل أن تشغلني أهواء الفؤاد !! . وغضبت فولت هاجرة وذهني مبلبل حول التفكير في أمور :

ليت شعري متى ترق قلوب هؤلاء الناس ، وإن رقت متى تنصف ، وإن أنصفت متى لا تظلم ، وإن لم تظلم متى نعطى الناس حقوقهم ؟ . .

نرجو أن يكون ذلك قريباً.

القاهرة — روض الفرج
في ديسمبر سنة ١٩٥٠

علي عبد الحليم البنجاوى

obeikandl.com